

الدراسات والأبحاث | Research Papers

سؤال المنهج في المعرفة السوسولوجية: من البراديغم الوضعي إلى البراديغم التأويلي

**The question of the method in
sociological knowledge:
From positivism paradigm to
interpretive paradigm**

عبد الحليم مهورباشة^(١)

Abdel Halim Mahorbach

حاولت هذه البدائل أن تتجاوز التناقضات والسلبيات التي وقع فيها البراديغم بثنائياته الوضعي والتأويلي، إلا أننا أثبتنا أن هذه البدائل على قيمتها المنهجية لم ترتق إلى مرتبة البراديغم البديل.

الكلمات المفتاحية: المنهج، المعرفة السوسولوجية، البراديغم، الوضعية، التأويلية.

Abstract:

This research paper aims to try to provide an answer to the question of the approach in sociological knowledge, Proceeding from a Directed hypothesis, it assumes that sociological knowledge has been subject to paradigmatics in its historical cognitive course, and employs a critical analytical method in its testing, So we talked in the first element: the legitimacy of Classification sociological knowledge from a paradigm positivism; We indicated that classification using theory or method does not help us in determining the determinants of sociological knowledge, And we highlighted in the second element: the nature of positivism paradigm in sociological knowledge, Referring to his basic methodological rules, such as his concept of scientific truth, his view of social phenomena as objects, and the

ملخص البحث:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى محاولة تقديم إجابة عن سؤال المنهج في المعرفة السوسولوجية، انطلاقاً من فرضية موجهة، ترى أن المعرفة السوسولوجية خضعت لبراديغمات في مسارها المعرفي التاريخي، وتوظف المنهج التحليلي النقدي في اختبارها، فتناولنا في العنصر الأول: مشروعية تصنيف المعرفة السوسولوجية من منظور البراديغم، وبيّنا أن التصنيف باستخدام النظرية أو المنهج لا يُسعفنا في الوقوف على محددات المعرفة السوسولوجية، وأبرزنا في العنصر الثاني: طبيعة البراديغم الوضعي في المعرفة السوسولوجية، بالإشارة إلى قواعده المنهجية الأساسية، كمفهومه للحقيقة العلمية، ورؤيته للظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء، والتفسير السببي لها، وتناولنا في العنصر الثالث سؤال المنهج في المعرفة السوسولوجية من منظور البراديغم التأويلي، أشرنا إلى مرجعيته الفلسفة الكانطية الجديدة، ورؤيته لماهية الظواهر الاجتماعية، وقواعده في فهم وتأويل الفعل الاجتماعي، وفي العنصر الرابع والأخير، عرضنا مجموعة بدائل منهجية طرحت في المعرفة السوسولوجية المعاصرة، كالنقدية والبراغماتية، حيث

منهجها المخصوص، ولكل مقارنة نظرية أدواتها التقنية والمنهجية في كيفية دراسة الظاهرة الاجتماعية. لكن هذا التعدد في الإجابات لا يحجب عنا تلك التقاطعات المعرفية في المنطلقات الإبيستيمية التي يقوم عليها كل منهج في السوسيولوجيا، فتبدو ظاهرياً هذه المناهج وكأنها تنتمي إلى أراضيات إبستيمولوجية متناقضة، بينما هي في الحقيقة تشع من براديغم معرفي واحد أو اثنين على أكثر تقدير.

تأتي أهمية الاشتغال على سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية كونه من أكثر الأسئلة تداولاً بين الباحثين، ونظراً لاختلاف الإجابات عنه، فمن الباحثين، من يرى أن المعرفة السوسيولوجية لم تتمكن من حسم خيارها المنهجية والمفهومية والنظرية منذ لحظة ميلادها إلى يومنا هذا، بينما يرى باحثون آخرون، أن الإجابات المتعددة عن هذا السؤال تعكس حيوية المعرفة السوسيولوجية، وقدرتها على تطوير أدواتها وتقنياتها المنهجية في دراسة الظاهرة الاجتماعية. تلك الظاهرة التي لا تجمد على وضع اجتماعي واحد، بل تعرف تغيرات وتحولات لا نهائية.

ما يزيد برأينا من تعقيد هذا السؤال، هو وقوف الباحث أمام معرفة سوسيولوجية تتسم بنشاط نظرياتها وتعدد أنساقها التفسيرية والتبريرية، واختلاف مقاربتها المنهجية للظواهر الاجتماعية، لذا تسعى هذه الدراسة إلى توظيف البراديغم كأداة منهجية

causal interpretation of them, In the third element : The question of the curriculum in sociological knowledge from the perspective of Al-Baraigham interpretive, We referred to his reference to the new Kantian philosophy, his vision of what are social phenomena, and his rules for understanding and interpreting social action, And in the fourth and last element, we presented a set of methodological alternatives that were brought up in contemporary sociological knowledge, such as critical and pragmatic, As these alternatives attempted to overcome the contradictions in which the paradigm occurred with its positional and interpretative duality, we have demonstrated that these alternatives to their methodological value have not been elevated to the alternative paradigm.

Keywords : Method, Paradigm, Positivism, Interpretative, Sociological knowledge

مقدمة

يثير سؤال المنهج في العلوم الاجتماعية عموماً وعلم الاجتماع خصوصاً موجة من النقاشات الأكاديمية والإبيستيمولوجية بين الباحثين والمفكرين، وتأتي الإجابة عنه بصيغ متعددة، إذا طالعنا التراث المعرفي السوسيولوجي، نجد أن لكل نظرية اجتماعية

ما فتئ أن تعرض لانتقادات إبستمولوجية بينت محدوديته المنهجية في تحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية، في المقابل، تنامي التيار المنهجي الذي أظّره البراديغم التأويلي في عقدي السبعينات والثمانينات من القرن المنصرم، ترجمه انهماج المشتغلين في الحقل السوسيوولوجي بالبحوث الكيفية والدراسات الميكروسوسيوولوجية، إلا أن هذا البراديغم لم يسلم من النقد في المعرفة السوسيوولوجية المعاصرة، التي دعى روادها ومؤسسوها إلى التحرر من البراديغم التأويلي، ودعوا إلى تأسيس براديغمات منهجية بديلة، تُمكننا من فهم تعقيدات الظواهر الاجتماعية المعاصرة، من هذا المنطلق، سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نجيب عن التساؤلات الآتية:

١. ما طبيعة البراديغمات التي خضعت لها المعرفة السوسيوولوجية؟
٢. ما مقومات المنهج في البراديغم الوضعي في المعرفة السوسيوولوجية؟
٣. ما هي قواعد وأسس المنهج في البراديغم التأويلي في المعرفة السوسيوولوجية؟
٤. ما هي أبرز الانتقادات التي وجهت للبراديغم (الوضعي والتأويلي) في المعرفة السوسيوولوجية المعاصرة؟ وما طبيعة البدائل المنهجية التي اقترحت في المعرفة السوسيوولوجية المعاصرة؟

تساعدنا في رسم صورة مركبة حول المعرفة السوسيوولوجية من جهة، والكشف عن طبيعة المنهج الذي ساد هذه المعرفة من جهة أخرى، على اعتبار أن البراديغم هو الذي يوطر المنهج، ويحدد قواعده وخطواته الإجرائية، رغم أننا سنكون حذرين منهجياً عند توظيف مفهوم البراديغم في المعرفة السوسيوولوجية؛ لأننا سنعمل على تكييف البراديغم الإرشادي عند توماس كون بما يفيد الاجابة عن سؤال المنهج في علم الاجتماع.

نعتقد أن قراءة فاحصة للمعرفة السوسيوولوجية تشي لنا بأنها خضعت لبراديغمات معرفية، اخترقتها منذ لحظتها التأسيسية الأولى، حيث انبنى كل براديغم على رؤية أنطولوجية للعالم الاجتماعي وظواهره، وعلى رؤية إبستمولوجية لكيفية دراسة الظواهر الاجتماعية، فنجد أن هناك براديغمين رئيسين هيمننا على المعرفة السوسيوولوجية، تولدت في فلكهما العديد من المفاهيم والمناهج والنظريات، يتمثل الأول في البراديغم الوضعي، الذي أسست منطلقاته وقواعده المنهجية أعمال دوركايم، ويتمثل الثاني في البراديغم التأويلي الذي أسست له أعمال ماكس فيبر، ويحتوي كل براديغم على تصورات وقواعد منهجية لكيفية دراسة الظواهر الاجتماعية.

هيمن وساد البراديغم الوضعي لعقود زمنية طويلة، ترجمتها سيطرة البحوث الكمية على المؤسسات الأكاديمية، لكنه

الطبيعية، فلئن كانت هذه الاخيرة، تخضع لنوع من الانتقالات الخطية عبر مسارها العلمي، حيث تتميز كل مرحلة من تاريخ العلم بمجموعة من المناهج والفرضيات والنظريات، خاضعة لثنائيتي التراكم والقطيعة في كل مرحلة تاريخية، حيث نجد أن توماس كون استطاع أن يحقب المعرفة في العلوم الطبيعية بواسطة النموذج المعرفي، «النموذج هو ما يؤسس ويحافظ على الإجماع بين المتخصصين فيما يتعلق بمشروعية المشكلات الحقيقية، التي يجب العلم على حلها، ومنهجيات الاستخدام وطرق إيجاد الحلول ملموسة»⁽¹⁾.

إذا أتينا الى مجال العلوم الاجتماعية، فإننا سنجد أن الآليات الإستيمولوجية التي استخدمت في التحقيب المعرفي للعلوم الطبيعية، تكاد لا تنطبق على معظم فروع العلوم الاجتماعية، فهل يمكننا أن نحقب التطور التاريخي للمعرفة في العلوم الاجتماعية بواسطة البراديغم كما فعل توماس كون؟ هل تعد العلوم الاجتماعية علومًا قياسية؟ وعبارة علم قياسي: «تعني البحث الذي رسخ بنيانه على إنجاز، أو أكثر، من إنجازات الماضي، وهي إنجازات يعترف مجتمع علمي محدد، ولفترة زمنية، بأنها تشكل الأساس لممارسته العلمية مستقبلاً»⁽²⁾.

أولاً:

فرضية الدراسة ومنهجها:

الفرضية البحثية التي نطلق منها في هذه الدراسة، تفترض أن المعرفة السوسولوجية خضعت لبراديغمات معرفية عبر مسارها المعرفي التاريخي، وأن المناهج والتقنيات والأدوات تحدها طبيعة هذه البراديغمات، وهنا، نجد البراديغم الوضعي الذي أسس للمنهج الوضعي في دراسة الظواهر الاجتماعية، والبراديغم التأويلي الذي أسس للمنهج التأويلي في دراسة الظواهر الاجتماعية، وطرح في المعرفة السوسولوجية المعاصرة بدائل منهجية إلى أنها لم ترق إلى مرتبة البراديغم، وبقيت محاولات منهجية ومعرفية مشتتة وموزعين بين أعمال العديد من الباحثين، وسنستخدم المنهج التحليلي النقدي في التحقق من صحة هذه الفرضية البحثية.

ثانياً:

في مشروعية تصنيف المعرفة السوسولوجية من منظور البراديغم:

يُقر معظم المشتغلين في فلسفة العلوم الاجتماعية، أن هناك صعوبات إستيمولوجية في عملية التحقيب التاريخي لمعارف هذه العلوم، تختلف هذه العلوم في مجال تراكم معارفها ونظرياتها ومناهجها عن العلوم

(1) Gilles Willett, Paradigme, théorie, modèle, schéma : qu'est-ce donc ?, Communication et organisation [En ligne], 10 | 1996, mis en ligne le 26 mars 2012, consulté le 28 février 2020. URL

(2) توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، العدد: 118، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992)، ص 39.

في البداية على تقديم تبرير معرفي ومنهجي لاختصاصها لمفهوم البراديغم (النموذج المعرفي)، وسنحاول أن نفكك الألغام الإبستمولوجية التي تعرض طريقنا في سبيل رسم صورة جلية واضحة لهذه المعرفة، فأول سؤال سيواجهنا به القارئ: ما مشروعية توظيف البراديغم في تصنيف المعرفة السوسيولوجية؟ ونحن، نقرأ في المسار التاريخي لهذه العلوم محاولات عديدة، للوقوف على أشكال وأنماط هذه المعرفة، فاستخدمت النظرية العلمية كمعيار في عملية التصنيف، في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، تحت وطأة النزعة المتنامية لمأسسة هذه العلوم داخل الجامعات الحديثة، وتحت ضغط تجزئة المقررات الدراسية والمناهج التعليمية، حيث لم يعد ممكناً عرض هذه المعرفة دون تبويبها وتصنيفها، فظهرت العديد من التصنيفات للمعرفة السوسيولوجية، نعثر في هذا الصدد على محاولة نيقولا تماشيف، وبيتريم سوركين، وغيرهما.

وفي السياق نفسه، هناك من أخذ بمعيار الموقف من المجتمع، وقسم المعرفة السوسيولوجية إلى نظريات محافظة، ونظريات نقدية، وهناك من اتخذ من وحدة التحليل السوسيولوجي معياراً للتصنيف، وقسمها إلى الماكروسويولوجيا والميكروسويولوجيا، ونجد من الباحثين من قسمها إلى تيارات واتجاهات، يضم كل اتجاه مجموعة من العلماء المؤسسين، إلا أن النقد الذي نوجهه لهذه

السؤال الذي يُطرح هنا: هل تشكلت جماعات علمية في العلوم الاجتماعية واتفق باحثوها على ممارسات منهجية تلزم الباحثين القادمين إليها بها؟ أم أن هذه العلوم تعاني من التشظي النظري والتعدد المنهجي بشكلٍ مستمر منذ لحظة ولادتها؟ نظراً لمجموعة من الخصوصيات، التي تتعلق بالبنية الإبستمولوجية الداخلية لهذه العلوم، كونها علوماً تهتم بدراسة الإنسان، ونحن نعلم، مثار الجدل حول ماهية الإنسان، وانفلاته من قبضة الحتمية الطبيعية، كما أننا نجد أن هذه العلوم: تعاني من استباحة مستمرة لحدودها ومجال اشغالها من طرف العلوم الطبيعية، فغالباً ما تستعير هذه العلوم منها مقولات ومفاهيم وتقنيات منهجية: كمقولة النسق، العضوية، التماثل، التوازن، البينة، المورفولوجيا وغيرها، لذلك تشغل وضغاً إبستمولوجياً قلقاً على الدوام، يُوحى بالناظر إليها أنها علوم مأزومة، في حين، أن أزمته حالة مصابحة لها على الدوام، وتتهنك باحثها ومشتغليها، بالإضافة إلى إشكالية التحيزات الذاتية والثقافية والأيديولوجية التي تخترق ممارساتها، وتعاني من استباحة مجال اشغالها من طرف المؤسسات السياسية، مما يجعلها تتخني في مرات لطلباتها خائنة مبادئها الإبستمولوجية وقواعدها المنهجية.

من هذا المنطلق، إذا أتينا إلى المعرفة السوسيولوجية باعتبارها مركز المعرفة في العلوم الاجتماعية، فإننا سنكون مجبرين

التصنيفات لأشكال المعرفة السوسولوجية، إنها تتغافل عن الانقسام الحاد الذي نجده داخل الاتجاه النظري الواحد، وكذلك التحيز الأيديولوجي المصاحب لكل عملية التصنيف، حيث توصف بعض النظريات بالعلمية، بينما الأخرى توصف بغير العلمية، مثلاً يعتبر البعض النظرية الماركسية نظرية علمية، في حين، يراها آخرون مجرد أيديولوجيا، مع الإشارة إلى أن: «أي نظرية تقوم بوصف الواقع لا بد أن تطرح بين ثناياها-تصريحاً أو تلميحاً- افتراضات عما يجب أن يكون عليه شكل ذلك الواقع. ولقد دعا ألفن جولدنر هذه الافتراضات افتراضات المجال، وبناء على ذلك، فإن النظرية دائماً تنطوي على نظرة معينة إلى الفعل السياسي، وعلى أشكال الفعل الممكنة والمستحبة»^(١).

التصنيفات لأشكال المعرفة السوسولوجية، إنها تتغافل عن الانقسام الحاد الذي نجده داخل الاتجاه النظري الواحد، وكذلك التحيز الأيديولوجي المصاحب لكل عملية التصنيف، حيث توصف بعض النظريات بالعلمية، بينما الأخرى توصف بغير العلمية، مثلاً يعتبر البعض النظرية الماركسية نظرية علمية، في حين، يراها آخرون مجرد أيديولوجيا، مع الإشارة إلى أن: «أي نظرية تقوم بوصف الواقع لا بد أن تطرح بين ثناياها-تصريحاً أو تلميحاً- افتراضات عما يجب أن يكون عليه شكل ذلك الواقع. ولقد دعا ألفن جولدنر هذه الافتراضات افتراضات المجال، وبناء على ذلك، فإن النظرية دائماً تنطوي على نظرة معينة إلى الفعل السياسي، وعلى أشكال الفعل الممكنة والمستحبة»^(١).

بناء على هذا، نعتقد أن تصنيف المعرفة السوسولوجية انطلاقاً من النظريات يُعقد عملية الاستيعاب المعرفي لها، ويرسم أمامنا صورة مشوهة عن مسارات نموها وتطورها، لذا نرى أن البراديغم الذي وظفه توماس كون في فلسفة العلم الطبيعي، مع إدخال بعض التعديلات الصورية والمنطقية عليه، يُسعفنا في تحقيب المعرفة السوسولوجية، بحيث كل براديغم سوسولوجي، هو عابرة عن كل مركب من النظريات، «ومن الأيديولوجيات، من الأفكار الكبرى، من المفاهيم، مثل الوضعية، البنيوية، يقوم بانتقاء مجموعة محددة من

(٢) جاك مهان، الخطابات علم الاجتماع، ترجمة: عياشي عنصرطا (الأردن: دار المسيرة، ٢٠١٠)، ص ١٨.

(3) Fetcu, Nicolae, Imre Lakatos, La méthodologie des programmes de recherche scientifique, SetThings (25 mars 2019), MultiMedia Publishing; URL = <https://www.setthings.com/fr/imre-lakatos-la-methodologie-des-programmes-de-recherchescientifique>

(١) أيان كريب، النظرية في علم الاجتماع، من بارسونز إلى هايرماس، ترجمة: محمد حسين علوم، العدد: ٢٤٤، (الكويت: المجلس الأعلى للفنون والثقافة والآداب، ١٩٩٩)، ص ٣٧.

التي ندافع عنها، حيث يرى آلان توران أنه لتصنيف النظريات والاتجاهات النظرية في حقل معرفي، يجب توافر ثلاثة شروط رئيسية، وهي: «أن تكون وحدة المعرفة في هذا الحقل محددة وواضحة، تكامل نتائج البحوث في نظرية واحدة، والتعدد النظري يكون نظرياً خالصاً، وليس تعبيراً عن الإيديولوجيا والآراء الذاتية»^(٢).

يتمثل المعيار الأساسي الذي اعتمد عليه توران في طبيعة العلاقة بين النسق الاجتماعي والفاعل الاجتماعي، وفي طبيعة العلاقة بين المؤسسات ودوافع الفاعلين، «النسق الاجتماعي محدد بواسطة العلاقة، التي تظهر بين القيم والمعايير وأشكال التنظيم داخل النسق وتوجهات الفاعلين الاجتماعيين»^(٣)، فخلص توران إلى أن المعرفة السوسولوجية عرفت ثلاثة مدارس كبرى: المدرسة البنائية الوظيفية، والمدرسة البنائية الماركسية، المدرسة التفاعلية الرمزية، ونرى أن هذا التصنيف على ما فيه من تعميم مبالغ فيه، إلا أن معايير أكثر عقلانية في تصنيف المعرفة في علم الاجتماع، وسوف يفيدنا في إجابتنا عن سؤال المنهج في علاقته بالبراديجمات المعرفية.

نجد من الباحثين المعاصرين من استخدم البراديجم كميعار تصنيفي عالم

يصعب علينا استيعاب النظريات؛ لأنها من الغزارة والتعدد ما يجعلنا حائرين أمامها، نرى من وجهة نظرنا أن توظيف البراديجم يساهم في عملية الاستيعاب المعرفي لسؤال المنهج في المعرفة السوسولوجية، فتطبيق البراديجم في دراسة التاريخ المعرفي للعلوم الاجتماعية يغطي فائدة ثلاثية: «الأولى: هي أنه ليس له أي هدف معياري وتوجيهي، ولا يزعم أنه يعلن ما هو العلم الحقيقي، بعد ذلك يطرح هذا المفهوم أداة للوصف المنطقي قائمة على الأقرب من الإجراءات المستخدمة فعلياً في العمل اليومي للباحثين، وفي الأخير هذه الأداة تجعل المقارنة بين الميادين ممكنة، وتسمح بطرح مسألة المعرفة العلمية بتعبيرات متجددة»^(٤).

بعد أن بررنا مشروعية توظيف البراديجم، ننتقل إلى الإجابة عن سؤال: **ما هي البراديجمات الأساسية التي خضعت لها المعرفة السوسولوجية عبر مسارها التاريخي المعرفي؟** نجد في هذا الصدد العديد من الإجابات المعرفية التي سبقنا إليها باحثون متخصصون، سنحاول أن نستأنس بعملين رئيسيين في تصنيف المعرفة السوسولوجية بما يخدم الإشكال المركزي الذي نحاول أن نجيب عنه، نعتقد أن المحاولة التي قدمها عالم الاجتماع آلان توران، تقترب من فكرة توظيف البراديجم

(٢) Alain Touren, LES ÉCOLES SOCIOLOGIQUES, Cahiers de recherche sociologique, no 14, printemps 1990, p21.

(٣) Ibid.p22.

(٤) فليب كابان، جان فرنسوا دروتيه، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ترجمة: إياس حسن، (ط١ سوريا: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠)، ص ٢٨١.

المعيار معايير أخرى من قبيل: معيار المنهج والحقيقة العلمية، والقواعد الإبيستيمولوجية، والإفترضات المنهجية.

قمت بتطوير فكرة ريمون بدون حول البراديغمات في علم الاجتماع⁽³⁾، وخلصت إلى أن هناك براديغمين رئيسين سادا وهميًا في المعرفة السوسولوجية، وهما: البراديغم الوضعي، والبراديغم التأويلي، ويقوم كل براديغم على مرجعية فلسفية محددة، يبنى في ظلها رؤيته للحقيقة العلمية، ويحدد طبيعة الموضوع القابل للدراسة العلمية، وكذلك يُحدد المنهج الذي يُمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية، ويتشكل البراديغم من مجموعة من النظريات التي تبدو في ظاهرها أنها تختلف لكنها تخضع لنفس المبادئ المعرفية والقواعد المنهجية.

ف نجد أن المعرفة السوسولوجية من لحظة انبثاقها إلى يومنا هذا خضعت لبراديغمين، الأول: البراديغم الوضعي بمختلف تياراته النظرية ومذاهبه المنهجية، والثاني: البراديغم التأويلي بكل تياراته ونظرياته ومفاهيميه، وهنا، نؤكد على أن البراديغم يخضع لثنائية: القطيعة والتواصل، عكس البراديغم الإرشادي بمفهومه عند توماس كون، الذي يخضع للقطيعة الجذرية، نحن، هنا لا نتحدث عن ثورات وانقلابات معرفية كلية حدثت في المعرفة السوسولوجية، وإنما أتحدث عن قطائع حدثت في بعض الافتراضات المنهجية،

الاجتماع ريمون بدون، الذي يرى أن المعرفة السوسولوجية عبر مسيرتها التاريخية، خضعت للبراديغم الحتمي، الذي يضم كل من: الماركسية، التوكفيلية، الفيررية، الميرتونية، والبراديغم التفاعلي الذي يضم: الوظيفي، الثقافي، الشمولي الحتمي المنهجي، حيث يرفض البراديغم الحتمي: «استقلالية الفاعل الاجتماعي، يتعامل معه سلبياً، تفسر الظاهرة الاجتماعية باعتبارها محصلة مجموعة السلوكيات محددة المعنى مسبقاً، يركز على الدور والقيم والمعايير، إدخال القيم والمعايير، تحديد الفعل بشكل حتمي، الحتمية وصفية واحتمالية الفعل الاجتماعي»⁽¹⁾.

ينطلق البراديغم التفاعلي من الفاعل الاجتماعي، الذي يضع في حساباته سلوكيات الآخرين، سنحاول في هذه الورقة البحثية، أن نبنى على هذا التصنيف، مع توسيعه بما يخدم إشكالية الدراسة وما تروم تحقيقه: لأن عملية التصنيف التي قدمها ريمون بدون، تقوم على مبدأ جوهرية معياري يتمثل في طبيعة العلاقة بين الفاعل الاجتماعي والنسق الاجتماعي⁽²⁾، بينما نحن نريد أن نصف المعرفة السوسولوجية وفق لمبدأ معياري متعدد، يعتبر معيار ريمون بدون هو أحد المعايير التي سنوظفها، فهناك بالإضافة لهذا

(1) Yao Assogba, La sociologie de Raymond Boudon. Essai de synthèse et applications de l'individualisme méthodologique, Québec : Les Presses de l'Université Laval-l'Harmattan, 1999, p13.

(2) Boudon Raymond, Traité de sociologie, Paris, Presses Universitaires de France, 1992.

المجتمعات»⁽¹⁾، بالإضافة إلى أن الفلسفة الوضعية كمنظورية في المعرفة تختلف عن نظرية المعرفة التجريبية ونظرية المعرفة العقلانية، حيث طرحت خيلاً معرفياً جديداً، يستند إلى فكرة جوهرية، ترى بأن هناك علاقة بين المعرفة الانسانية والأطر الاجتماعية، كما تعتمد المعرفة الإنسانية على منهج واحد في دراسة الظواهر الاجتماعية والطبيعية.

نشأت السوسولوجيا كآخر علم في سلسلة العلوم الوضعية، يعلوها مرتبة، على اعتبار أنه يُوظف ما تصل إليه بقية العلوم في المناهج في دراسة الظواهر الاجتماعية، سيكون من السهل علينا الآن أن نحدد بدقة الطبيعة الصحيحة للعلوم الوضعية، نرى مما سبق، أن طابعها الأساسي هو اعتبار جميع الظواهر خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة، ويكون اكتشافها وتقليصها إلى أقل عدد ممكن، هدفاً لجميع جهود المفكر الوضعي من ناحية أخرى، فإن البحث عن ما يسمى بالأسباب، سواء كانت أساسية أو نهائية، يبدو عديم الجدوى وبلا معنى⁽²⁾، واعتبرت السوسولوجيا بمثابة الديانة الجديدة، التي أتت على أنقاض المعرفة الدينية الغيبية، وهنا، حملت المعرفة

لكنها حافظت على افتراضات منهجية أخرى في نفس الوقت، مثلاً البراديغم الوضعي عرف قطيعة جزئية عند النيويين على مستوى رؤية الظاهرة الاجتماعية، عندما أرجعوا الظاهرة الاجتماعية إلى هيمنة البيئة الاجتماعية، مخالفين العديد من القواعد التي صكها دوركايم في منهجه الوضعي، كقاعدة تمثلات الأفراد للظواهر الاجتماعية، وكذلك نفس الأمر حدث مع التيارات النقدية والنسوية في تعديلها لبعض قواعد البراديغم التأويلي في دراسة الظواهر الاجتماعية المعاصرة.

ثالثاً:

سؤال المنهج في المعرفة السوسولوجية من منظور البراديغم الوضعي:

ساد البراديغم الوضعي في المعرفة السوسولوجية لعقود زمنية طويلة في الجامعات والمؤسسات البحثية، وهيمن على الرؤى النظرية والمنهجية للباحثين في علم الاجتماع، حيث تُعتبر الفلسفة الوضعية إطاره المرجعي، وتقوم الفلسفة الوضعية على فكرة دراسة الاجتماعي الواقعي، فأكد كونت على الملاحظة والمقارنة والتجريب في علم الاجتماع، وهي نفس الخطوات المنهجية المستخدمة في الكيمياء والبيولوجيا، وتسعى السوسولوجيا إلى صياغة القوانين العلمية التي تحكم تطور

(1) Moustfa Boutafnouchet, introduction a la sociologie, les fondement, Office national des publication universitaire , algerie, 1990, p18.

(2) Comte, Cours de philosophie positive I. Leçons 1 à 45, éd. M. Serres, F. Dagognet, A. Sinaceur, Paris : Hermann, 1998,p25/26.

بين الوضعين الرئيسيين لإثبات الحقيقة، مع معاداة الفلسفة الحديثة في شقيها (الوضع العقلاني والوضع التجريبي)^(١).

بتعبير أدق، يفترض كل علم فرضيات ذات طبيعة محددة، ويحدد أنواعًا من الحقائق، وهذا يعني بشكل غير مباشر تحديد جانب واحد من نظام حقيقي أو نظام للعالم لا يُقرأ بشكل مباشر، ولكن الذي نشير إليه، وبالتالي، فإن العلم أو هذا النظام للعالم يزودنا بمعرفة معينة ودقيقة بالإضافة إلى المعرفة النسبية والجزئية، وبهذا المعنى، فإن الوضعية تنصحنا بالتخلي عن روح المطلق (اللاهوت والميتافيزيقيا)، والاعتراف النهائي بالجانب التقريبي للمعرفة الذي يستمد منها صلاحيتها، اليقين النسبي هي الحقائق العلمية، هذه النسبية لا تؤدي إلى أي شكوك ولا تستبعد تطبيق المعرفة»^(٢).

بناءً على مفهوم الحقيقة العلمية في البراديغم الوضعي، تكون الحقيقة السوسولوجية منفصلة عن الذات الإنسانية، يُمكن الوصول إليها من خلال الملاحظات الحسية المتكررة للعالم الاجتماعي، «فكل نموذج ينحو إلى تشكيل علم عادي، أي صيغة خاصة من المعرفة تستبعد التأويلات الخارجية عن النموذج، وكذلك تصورات النماذج المناهضة: ضمن

السوسولوجية في جيناتها التأسيسية فكرة الإصلاح الاجتماعي.

يقوم البراديغم الوضعي في المعرفة السوسولوجية على مجموعة من الافتراضات المؤسسة لطبيعة المنهج الذي يُمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية، يتمثل أول افتراض مركزي النظر إلى الحقيقة العلمية وماهيتها وكيفية الوصول إليها، فهنا، وهنا، نطرح سؤالاً عن ماهية الحقيقة العلمية؟ كما هو معلوم في تاريخ الفلسفة الوضعية، أنها عدلت من مفهوم الحقيقة الميتافيزيقية واعتبرتها مرحلة سابقة على المرحلة الوضعية، وخلافًا للحقيقة الجاهزة المبتوثة في اللاهوت الديني، لم تعد الحقيقة معطى سابقًا، وإنما يصل إليها العقل الإنساني عن طريق اتباع قواعد المنهج العلمي، لكن الوضعية بخلاف التجريبية، لا تنطلق في دراسة الظواهر الاجتماعية من واقعها الحسي التجريبي، وإنما تنطلق من افتراضات نظرية سابقة حول هذه الظواهر، وبالتالي، من أجل الانخراط في الملاحظة الميدانية للظواهر، يحتاج عقلنا إلى بعض الافتراضات النظرية، إذًا، من خلال التفكير في الظواهر، إذا لم نعلقها بمبدأ ما، فإنه سيكون من المستحيل أن نستخلص منها شيئًا ما، «فالحقائق لن تمر أمام أعيننا، هذه ضرورة يُفسرها كل علم معين بطريقته الخاصة، وبالتالي، فإن نظرية المعرفة عند أوغست كونت توفق طواعية تمامًا

(1) Juliette Grange, Lire Auguste Comte aujourd'hui, Entre Science et société, Bulletin de la Sabix, 30 | 2002, 11-20.

(2) Ibid.

المعرفة السوسولوجية، فما طبيعة الظواهر التي تدرسها السوسولوجيا؟ فما هو ما تداول بين الباحثين في فلسفة العلوم، أن الموضوع objet تترتب عليه العديد من الاستتبعات المنهجية، هنا، الموضوع موجود في العالم الاجتماعي، بشكل خارجي مستقل عن وعي الذات الانسانية، حده إميل دوركايم في النظر إليه كأشياء خارجية كما ننظر إلى الظواهر الطبيعية، قائلاً: «علينا أن نهتم بالظواهر الاجتماعية في حد ذاتها، ومنفصلة عن وعي الأفراد الذين يقومون بتمثلها. علينا أن ندرسها من الخارج كأشياء خارجية، وهي الصفة التي تتقدم بها إلينا»^(٣).

لكن أهم خاصية تتميز بها الظواهر الاجتماعية تتمثل في طبيعة القهر والجبر الاجتماعي، بمعنى يخضع الافراد بصفة قهرية لها وبدون وعي منهم، ما يقابل صفة الحتمية التي تتميز بها الظواهر الطبيعية، يخضع الأفراد لسلطانها، فتتكرر الممارسات الاجتماعية مشكلة محتويات الظواهر الاجتماعية، وعلى هذا الأساس، يُمكننا أن نتخذها موضوعاً للتقصي المعرفي في السوسولوجيا، لذا اعتبر الموضوع الرئيس في هذا البراديجم بمختلف فروع واتجاهاته النظرية: المجتمع/ البيئة الاجتماعية/النسق الاجتماعي/الطبقة الاجتماعية، وبناءً على طبيعة ماهية الموضوع، يصف الباحثون هذا البراديجم بالاتجاه الكولينيالي: holism في

السياق نفسه قد يختار النموذج بعض الوقائع ويعتبرها جوهرية ويستبعد وقائع أخرى»^(١)، وهذه الحقيقة نجدها ماثوثة في فلسفة العلم الطبيعي، وقد أخذت بها المعرفة السوسولوجية، وهي القوام الرئيس للمنهج العلمي، وتتجلى هذه الحقيقة في قواعد المنهج التي وضعها إميل دوركايم، عندما دعى إلى دراسة الظواهر الاجتماعية كما تُدرس الظواهر الطبيعية، «علم الاجتماع، كعلم الطبيعة، فرع من فروع المعرفة التي غايتها أن تجمع بين الجانب النظري والتجريبي في وقت واحد»^(٢).

بناء على مفهوم الحقيقة السوسولوجية، تصبح مهمة المعرفة السوسولوجية صياغة القوانين العلمية التي تحكم سير الظواهر الاجتماعية والمجتمعات الانسانية، ويوصلنا المنهج الوضعي إلى الحقيقة التي توجد في العالم الاجتماعي، تلك الحقيقة العلمية، التي يمكن أن نصل إليها باستخدام العقل الإنساني، ونُدركها بحواسنا، وتكون منفصلة عن ذواتنا، وتسكن الحقيقة السوسولوجية شبكة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد والجماعات.

تؤسس الحقيقة العلمية في البراديجم الوضعي لتصور أنطولوجي لموضوع البحث في

(١) بيار أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة: نخلة فريفر، ط1) المغرب: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢، ص١٦.

(٢) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة: عبد الحميد صبرة، (مصر: دار المعارف، ١٩٥٩)، ص٤٩.

(٣) إميل دوركايم، قواعد المنهج السوسولوجي ترجمة: محمد سبيني، (الجزائر: دار القصة للنشر، ٢٠٠٨)، ص٥٥.

المعرفة السوسولوجية، حيث يعتبر الفرد/الفاعل الاجتماعي متغيرًا تابعًا للمجتمع، وأن سلوكه لا ينبع من خياراته الذاتية، وإنما من قهريّة الاجتماعي الكلي، وعرفت الظاهرة الاجتماعية على أنها محصلة تفاعلات الأفراد مع المجتمع، وليس محصلة الأفعال الفردية، فالمجتمع كينونة متعالية على ذوات الأفراد، نجد أن التيار البنيوي أخذ بهذا البعد إلى مداه الأقصى، عندما انتصر للبنية الاجتماعية ماحيًا كل أثر للفرد في الوجود الاجتماعي.

تفرع البراديغم الوضعي إلى تيارات ونظريات عديدة في المعرفة السوسولوجية، نذكر منها: التيار الوظيفي الذي قاده بارسنز، الذي لم ينظر إلى الفعل الاجتماعي كتصنيف كما نظر إليه ماكس فيبر، ولا كعمليات متعاقبة من منظور باريتو، ولكن كبنية اجتماعية مستقلة تمامًا، بنفس المبنى الذي أعطاه دوركايم ومفهومه البنية في تقسيمه للمجتمعات الميكانيكية والمجتمعات العضوية⁽¹⁾، وتيار البنيوية الجينية الذي قاده بيار بورديو، فأثناء مراجعته نموذج دوركهايم، لم يفشل بورديو في تذكر أن رأس المال الاجتماعي لا ينشأ عن تأثير الذات، بل هو نتاج منطوق علائقي يربط الأفراد المتناثرين في الفضاء الاجتماعي، حيث الحفاظ على الروابط بشكل مستقل عن إرادتهم، حتى لو كانوا يتمثلون هذه الروابط ناشئة عنهم⁽²⁾، والتيار

الماركسي بمنهجه المادي الجدلي، يرى أن المعرفة العلمية (حسية ومباشرة) تعقبها النظرية (تنظيم المعارف، معرفة ملموسة/ملموس مفكر فيه) كما يقول ماركس، والتي توجه بدورها الممارسة تغذي البراكسيس [...] وعليه يشكل السعي بين النظرية والممارسة أحد أسس المادية الجدلية⁽³⁾، والتيار الإمبريقوي، الذي قادته مدرسة شيكاغو. رغم الاختلاف الظاهري بين هذه التيارات النظرية والمنهجية، فإنها تنهل من قواعد وأسس البراديغم الوضعي، وتبني عليها مفاهيمها ومناهجها في مقارنة الظواهر الاجتماعية، حيث تتعامل هذه التيارات النظرية مع العالم الاجتماعي كمعطى سابق، ومستقل عن وعي الباحث، أو بتعبير إيمانويل كانط نوعًا من المعرفة القبليّة.

هنا، نسجل ملاحظة أخرى في غاية الأهمية: أسبقية الأنطولوجي للإبستمولوجي في التأسيس للمعرفة السوسولوجية من منظور البراديغم الوضعي، فيفترض هذا البراديغم وجود كائن سامٍ يسامي المجتمع أو ما يمثله، يتعالى على كينونة الأفراد، بحيث يخضع الأفراد لسلطته، وهو شبيه بالإله في الفكر اللاهوتي، لذا تُنتج المعرفة السوسولوجية عبر فهم هذا الكلي الاجتماعي، ويفترض البراديغم الوضعي أن الظواهر محصلة تفاعل الأفراد والجماعات والطبقات مع المجتمع، وهو عبارة عن تفاعل

تفرع البراديغم الوضعي إلى تيارات ونظريات عديدة في المعرفة السوسولوجية، نذكر منها: التيار الوظيفي الذي قاده بارسنز، الذي لم ينظر إلى الفعل الاجتماعي كتصنيف كما نظر إليه ماكس فيبر، ولا كعمليات متعاقبة من منظور باريتو، ولكن كبنية اجتماعية مستقلة تمامًا، بنفس المبنى الذي أعطاه دوركايم ومفهومه البنية في تقسيمه للمجتمعات الميكانيكية والمجتمعات العضوية⁽¹⁾، وتيار البنيوية الجينية الذي قاده بيار بورديو، فأثناء مراجعته نموذج دوركهايم، لم يفشل بورديو في تذكر أن رأس المال الاجتماعي لا ينشأ عن تأثير الذات، بل هو نتاج منطوق علائقي يربط الأفراد المتناثرين في الفضاء الاجتماعي، حيث الحفاظ على الروابط بشكل مستقل عن إرادتهم، حتى لو كانوا يتمثلون هذه الروابط ناشئة عنهم⁽²⁾، والتيار

(1) M. Boutefnouchte, p180.

(2) Lahouari Addi, sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu Le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, La Découverte, 2002, p137.

(3) جان بيار دوران، روبير فايل، علم الاجتماع المعاصر ترجمة: ميلود طواهري، طا (بيروت: دار الرافد الثقافية - ناشرون، 2012)، ص 11.

ويترتب على هذا المبدأ الثاني ممثلًا في التفسير السببي أو العلي للظواهر الاجتماعية، فالتفسير السببي للظواهر، من خلال إلحاق الظواهر بعضها ببعض، والسعي إلى صياغة قوانين تطور المجتمعات أو الأنساق الاجتماعية، «فالمجتمع آلة، الإنسان آلة، يجب لذلك أن يدرس بواسطة الأدوات التي أوضحها علم الفيزياء، وبشكل أدق علم الميكانيك، والخواص التي سلط عليها الضوء علم السكون، وعلم الحركة علم الديناميك باعتبارها تستخدم أيضًا في المجتمع، إن قانون جاذبية اجتماعية مشابهة للجاذبية الفيزيائية»^(١).

ترتبط الموضوعية العلمية في المعرفة السوسولوجية في البراديغم الوضعي بطبيعة المنهج العلمي المستخدم في دراسة الظواهر الاجتماعية، والذي استعيرت خطواته الإجرائية من منهج العلوم الطبيعية، القائم على فكرة القطيعة الجذرية بين الباحث والملاحظ وموضوعه، على هذا الأساس، على الباحث في علم الاجتماع أن يفصل بين ذاته وموضوعه، «إذا العلوم الاجتماعية والانسانية علوم بالفعل، فإن عليها أن توفر لنفسها هذه الثنائية، وما لها إلا أن تنقلها فقط لتضعها داخل الانسان نفسه: فتم الانقطاع عندئذ بين الإنسان الذي يراقب والإنسان أو البشر المراقبين»^(٢).

للجزء مع الكل، مع أسبقية واضحة للكل على الجزء، طبقًا مع إضافة مسلمة تاريخية خفية، ترى أن المجتمعات الانسانية سائرة في طريقها للتصبح مثل المجتمع الصناعي الغربي، وهي قراءة تاريخية خطية لتطور المجتمعات الانسانية، وتعادل المرحلة الثالثة الوضعية من مراحل تطور العقل التي حدثنا عنها أوجست كونت .

بناء على الرؤية الأنطولوجية للظواهر الاجتماعية في البراديغم الوضعي، يتأسس المنهج العلمي الذي نوظفه في دراستها، حيث يرى أصحاب هذا البراديغم أن منهج العلم الطبيعي هو المنهج الأصوب لدراسة الموضوعات في المعرفة السوسولوجية، يقوم هذا المنهج على النزعة الاستقرائية، القائمة على فكرة أن العلم يبدأ من ملاحظات ميدانية جزئية، وينتقل منها الى تعميمات كلية (القوانين والنظريات)، لذلك الباحث في علم الاجتماع مطالب بجمع أكبر قدر من الملاحظات حول ظاهرة ما، ثم صياغة فرضيات علمية، إذا تكررت تصبح قانونًا اجتماعيًا.

تقوم النزعة الاستقرائية على مبدأ السببية، بمعنى مبسط كل سبب يؤدي الى نتيجة، يكتشف العقل الإنساني الأسباب التي تقبع خلف الظواهر الاجتماعية، طبقًا عبّر عن هذا المبدأ في البحوث الكمية في المعرفة السوسولوجية بمفهوم المتغيرات، حيث يسعى الباحثون للكشف عن العلاقة بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة،

(١) جيفاني باسينو، نقد المعرفة في علم الاجتماع، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، ط١(لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، ص٢٤.

(٢) كلود ليفي شتراوس، مقالات في الأناسة، ترجمة: حسين قبيسي، ط١(لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، ص١١٢.

حاولت أن تتجاوز الأخطاء التي وقع فيها المنهجي الوضعي.

رابعًا:

سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية من منظور البراديغم التأويلي:

اتخذ البراديغم التأويلي من الفلسفة الكانطية الجديدة إطاره الفلسفي المرجعي، تلك الفلسفة التي عملت على إحياء الميراث الفلسفي الكانطي في مجال المعرفة في العلوم الاجتماعية. يعتبر ريكتر، وفلهالم ديلتاي، من أبرز ممثليها، الذين دعوا إلى الفصل بين طبيعة المعرفة في العلوم الطبيعية والمعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ووسموا هذه العلوم بعلوم الروح أو العلوم التاريخية، حيث تنهض هذه العلوم على منهج مخصوص يقوم على تأويل سلوكيات وأفعال الأفراد، «رغم نقاط الاختلاف المختلفة هذه، فإن مجموع الشامل للطرائق المتبعة في علوم الروح مختلف، من حيث منطلقاته، عن نظيره الذي في علوم الطبيعة»^(٢).

قدم أصحاب هذا البراديغم مبررات إبستمولوجية قوية لقضية الفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم التاريخية، فأبرز اختلاف بين هذه العلوم: يتمثل في طبيعة المنهج المستخدم في المعرفة، فتقوم

وهنا، ضرورة استبعاد الأيديولوجيا والتحيزات الثقافية عند دراسة الظواهر الاجتماعية.

في الأخير، كان لهذا البراديغم المعرفي ومنهجه الوضعي السيادة على مستوى المؤسسات الجامعية والمراكز البحثية، نظرًا لتماشيه مع أيديولوجيا النظم السياسية في رؤيتها لوظيفة العلم في المجتمعات الصناعية، حيث ترى أن وظيفة العلم تتمثل في حل المشكلات الاجتماعية، فسادت النظرية الماركسية في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، وسادت النظرية الوظيفية في الدولة الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

تعرض البراديغم الوضعي لانتقادات حادة من طرف العديد من الباحثين والمفكرين، إلا أن أقوى نقد صوب نحوه يتمثل في اتهامه إدخال المعرفة السوسيولوجية في أزمة إبستمولوجية حادة، بسبب رؤيته المادية للظواهر الاجتماعية، «فعلم الاجتماع يتناول موضوعًا واقعيًا قابلاً للملاحظة، ويعتمد على البحث الإمبريقي، وعرف محاولات كثيرة لصياغة نظريات والتوصل إلى تعميمات تفسر تلك الظواهر وتحيط بها. ولكن البشر ليسوا كالموضوعات المادية الموجودة في الطبيعة، فدراسة سلوكنا البشري تختلف بالضرورة اختلافًا قد يكون كليًا في بعض النواحي عن دراسة الظواهر الطبيعية»^(١)، وهو ما دفع بالعديد من الباحثين إلى طرح بدائل منهجية،

(٢) فلهلم ديلتاي، إقامة العالم التاريخي في علوم الروح، ترجمة: ف-تحة انقزو، طا) تونس: المركز الوطني للترجمة، ٢٠١٥، ص. ١١.

(١) أنتوني جينز، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة: أحمد زايد وآخرون، ط٢(القاهرة، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٦).

تتم عملية بناء الموضوع من قبل الباحث، ولا يعتبر معطى جاهزاً في العالم الاجتماعي.

تتعلق رؤية الموضوع من زاوية أنطولوجية في البراديجم التأويلي، بمفهوم الحقيقة العلمية، وهنا، تتسم الحقيقة العلمية في المستوى الأول بالبنائية، «تقدم البنائية الخطوات العلمية كنشاط منظم في شبكات اجتماعية تتميز بلا تجانس الفاعلين الاجتماعيين، وتعتبر عن رابط قوي مع المجتمع المحيط بها»^(٣)، والقصد من هذا الكلام، أن الحقيقة يقوم بنائها الباحث في المعرفة السوسيولوجية، وليست معطى جاهزاً، والمستوى الثاني: نسبة الحقيقة، بمعنى لا توجد حقيقة علمية أزلية، وإنما تتشكل الحقيقة بحسب اللغة والسياق التاريخي والاجتماعي، «المعرفة ليست معطى بل هي عبارة عن بناء، الحقيقة العلمية من منظور بنائي لا وجود لها، بل محض وهم، الحقيقة لا تجذب اهتمام الباحث البنائي، ما يهيمه قواعد الاكتشاف والبحث، لا ينبغي الخلط بين هذه القاعدة وما يتم تطبيقه في البنائية الاجتماعية للحقيقة الاجتماعية، نحن نعلم، الفاعلون الاجتماعيون يُشيدون الواقع الذي يعيشونه»^(٤).

هذه العلوم على منهج يخالف المنهج العلمي في العلوم الطبيعية، وتدافع عن تطبيق معايير خاصة بالعلوم الاجتماعية - التاريخية، وليس شرطاً أن تلتزم بدقة العلوم الطبيعية، حتى تُصنف ضمن العلوم، وإنما هناك اختلاف بين نماذج العلوم، وتختلف جذرياً عن العلوم الفيزيائية»^(٥)، وهذا، بخلاف البراديجم الوضعي الذي دعى أصحابه إلى الأخذ بوحدة المنهج بين العلوم الطبيعية والاجتماعية.

هنا، نسجل ملاحظة هامة: أسبقية الإبستيمولوجي على الأنطولوجي في بناء المعرفة السوسيولوجية، بناء على فرضية خفية ترى أن الإنسان مركز الكون، وبالتالي، الذات العارفة هي مركز المعرفة، والموضوع يسبح في فلكها، لذا الموضوع في المعرفة السوسيولوجية من منظور البراديجم التأويلي، لديه صلة بعالم القيم الثقافية وعالم المعاني والرمز، «فبناء الموضوع في العلوم الاجتماعية يتم بناءً على علاقته بالقيم والثقافة، علاقة إبستيمولوجية مع الثقافة، تدرس العلوم الاجتماعية من زاوية دلالاتها الثقافية، علاقة معرفية بالقيم، مفهوم الثقافة يحدد طبيعة القيم السائدة في الظواهر الثقافية الموجودة»^(٦)، وعليه،

(3) Marc Jacquemain, Bruno Frere, Epistemologie de la sociologie, paradigmes pour 21 siecle, Edetion de boeck universite, Bruxelles, 2008, p111.

(4) Alex Mucchielli, Le développement des méthodes qualitatives et l'approche constructivistes des phénomènes humains , RECHERCHES QUALITATIVES-Hors-Série - Numéro 1, p11 Actes du colloque RECHERCHE QUALITATIVE ET PRODUCTION DE SAVOIRS, UQAM, 12 mai 2004

(1) Julien Farges, LE RÔLE DU CONCEPT D'ÂME DANS LA FONDATION DES SCIENCES DE L'ESPRIT Entre phénoménologie, néokantisme et philosophie de la vie, Archives de Philosophie, 2014/4 Tome 77, p633

(2) Frédéric Gonthier, RELATIVISME ET VÉRITÉ SCIENTIFIQUES CHEZ MAX WEBER, L'Année sociologique, 2006/1Vol. 56, p17.

المعرفة السوسولوجية بالفاعل الاجتماعي، وهو ما نلاحظه فيما بعد عند العديد من التيارات الفرعية والنظرية لهذا البراديغم كالفردانية المنهجية، والتفاعلية الرمزية، والإثنوميثودولوجيا.

إذا جئنا الى طبيعة المنهج، الواجب اتباع خطواته في المعرفة السوسولوجية، نجد أنه يتمثل في المنهج التأويلي، حيث يقوم هذا المنهج على تأويل سلوكيات الفاعلين الاجتماعيين، وفهم المعاني والرموز التي يصفونها على أفعالهم في العالم الاجتماعي، ويختلف هذا المنهج عن منهج العلم الطبيعي القائم على الملاحظة والتجريب، بل لديه خطواته الاجرائية وأدواته التطبيقية المخصصة، «فإن تفسيرات العلم الاجتماعي للأفعال الاجتماعية تشتغل من خلال إظهار معقولية هذه الأفعال وفعاليتها وعقلانيتها في ضوء معتقدات الفاعل ورغباته»^(٣).

إذا كان التفسير الوضعي يطمح الى معرفة الأسباب والعلل التي تحكم سير الظواهر الاجتماعية، ومن ثم صياغة القوانين والنظريات، فإن التفسير التأويلي يطمح إلى فهم الظواهر والاجتماعية عبر فهم سلوكيات الأفراد ومقاصد أفعالهم، فتطمح جميع أنواع التفسير إلى الوصول إلى الوضوح، الوضوح يمكن أن يكون وضوح

(٣) حسن احجيج، التفسير القصدي للسلوك الاجتماعي وشروط صدقيته، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، العدد ٢٩ (صيف ٢٠١٩)، ص٦٧.

يترتب على هذا المنظور للحقيقة العلمية، طبيعة خصوصية الموضوع، فما هو الموضوع الذي تدرسه المعرفة من منظور البراديغم التأويلي؟ ترى السوسولوجيا أن الفرد الاجتماعي أو كما وسمه فيما بعد المفكرون وعلماء الاجتماع بالفاعل الاجتماعي/ الذات الاجتماعية/العون الاجتماعي، هو وحدة التحليل السوسولوجي، على اعتبار أن الظواهر الاجتماعية هي محصلة الأفعال الفردية، «فالمنهجية الفردانية في العلوم الاجتماعية تقرباً أن الظواهر الاجتماعية من خلال دراسة الفاعل الفردي، والتركيز على التفاعلات والفاعل، وفهم وتأويل الاعتقادات والقيم والاتجاهات»^(١).

يُعتبر ماكس فيبر الأب الروحي لهذا البراديغم، فلقد عرف علم الاجتماع، بأنه العلم الذي يهتم بدراسة الفعل الاجتماعي، «علم يهدف الى فهم الفعل الاجتماعي بطريقة شارحة ويفسر بذلك أسبابه في تتابعه وتأثيراته. الفعل هو هنا سلوك إنساني (سواء كان فعلاً خارجياً أو داخلياً، تخلصاً أو قبولاً)، وبالقدر الذي يربط به القائم بالفعل أو القائمون به معنى ذاتياً، ذلك الفعل الذي يتبع في معناه المقصود من قبل فاعل أو فاعليه سلوك الأفراد الآخرين ويتوجه في تتابعه حسب ذلك»^(٢)، طبعاً، يرتبط الموضوع في

(1) Naishtat Francisco s. Max Weber et l'individualisme méthodologique. In: Raison présente, n°116, 4e trimestre 1995, p99

(٢) ماكس فيبر، مفاهيم اساسية في علم الاجتماع، ترجمة: صلاح هوال، طا (مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١)، ص٢٩.

نجد أن التيار الاثنيمثدولوجي الذي تزعمه الفرد شوتز، يرى أن أي حقيقة اجتماعية، تحمل معنى حقيقياً أو تجريبياً. ثم نقوم بعد ذلك باستنتاج تفسيرات معينة (تجريبية) تحدد «موضوعات الفكر» لدى الأفراد بالحقائق الأكثر صلة، وبالتالي، تسمح لنا بإدراك الأساسيات، ومن ناحية أخرى، تتميز «الأشياء الفكرية» للعالم عن تلك التي يمتلكها الأفراد الآخرون: لأنها تخضع لقواعد علمية لا تسود لدى الآخرين»^(٣)، وهنا، يلتقي فير مع شوتز في البحث عن المعنى الذي يضيفه الفاعل على سلوكياته في الحياة اليومية، وفي نفس الاتجاه تقريباً، نجد ما أشارت إليه التفاعلية الرمزية عن: «أشكال التواصل والتمثلات التي تدخل في إطار العلاقات ما بين الأفراد. من هذه الزاوية لا يعتبر المجتمع ولا المؤسسات والعلاقات الاجتماعية معطيات، أو ضغوطات موجودة سلفاً، بل هي أمور يُعاد بناؤها، أو مناقشتها وتأويلها من ضمن التفاعل والتبادل اليومي»^(٤).

وجهت انتقادات حادة للمنهج من منظور البراديجم التأويلي، يأتي في مقدمتها عدم قدرة الباحثين على الفكك من أحابيل التحيزات الذاتية عند دراسة الظاهرة الاجتماعية، وعليه، طرح سؤال عن موضوعية

الفهم، سيكون الفهم هو الغاية التي تسعى إليها البحوث السوسولوجية، ويعني التفسير السببي لصحيح لفعل معين: «فالمسار الخارجي والدافع متطابقان وفي الوقت ذاته يُمكن التعرف على معنى كل منها في سياقه بصورة مفهومة. ويعني التفسير السببي الصحيح لفعل نمطي (لنمط فعل مفهوم): أن يبدو مجرى الأفعال الذي يفترض أنه نمطي متطابق المعنى وكذلك يكون ممكناً (بأي درجة) إثبات أنه متطابق سببياً أيضاً»^(١).

تجلت امتدادات البراديجم التأويلي في العديد من التيارات النظرية في المعرفة السوسولوجية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، لعل أبرزها تيار المنهجية الفردانية، لصاحبه ريمون بدون، الذي يفترض في الأول: «أن أي ظاهرة اجتماعية ناتجة عن مزيج من الأفعال أو المعتقدات أو المواقف الفردية (P1: مسلمة الفردية). ويترتب على ذلك أن اللحظة الأساسية لأي تحليل اجتماعي تتكون من «فهم» سبب الأفعال أو المعتقدات أو المواقف الفردية المسؤولة عن الظاهرة التي يسعى المرء إلى تفسيرها. بحسب الفرضية الثانية، «لفهم» أفعال ومعتقدات ومواقف الفاعل الفردي، هي إعادة بناء معانيها له، والتي من حيث المبدأ على الأقل - ممكنة دائماً (P2: مسلمة الفهم)»^(٢).

(3) Guy HUARD, Alfred SCHÜTZ :LE CHERCHEUR ET LE QUOTIDIEN, Publié dans Aspects sociologiques, Vol. 5, no 1, novembre 1996, pp. 30-36.

(٤) دورتيه، ج.ف. معجم العلوم الإنسانية ترجمة: جورج كتورة، ط. ٢ (بيروت- لبنان: كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠١١).

(1) فيبر، ص ٣٨.
(2) Raymond Boudon, THÉORIE DU CHOIX RATIONNEL OU INDIVIDUALISME MÉTHODOLOGIQUE ? Revue du MAUSS », 2004/2, no24, p281.

العديد من الباحثين والمفكرين، فلكل باحث أو مجموعة بحثية مبرراتها في التأسيس لهذا البديل، انطلقت بعض الطروحات البديلة من النقد المعرفي للمنهج الوضعي، باعتباره منهجًا أيديولوجيًا أكثر منه منهجًا علميًا، ونفس الأمر بالنسبة للمنهج التأويلي الذي اعتبر تحريفًا للمنهج في علم الاجتماع، اتفقت هذه البديل على النقد لكنها لم تتفق على افتراضات منهجية بديلة، فطرحت فكرة التكامل بين الوضعي والتأويلي، والتكامل بين الكمي والكيفي في تحليل الظواهر الاجتماعية، وطرح بعض الباحثين فكرة منهج يتماشى مع السياق الاجتماعي والتاريخي المغاير للسياسات التي ظهرت فيها البراديغم المنهجي المهمين، في حين، اكتفى بعض الباحثين بالنقد، الذي يرقى في بعض ممارساته إلى مرتبة منهج علمي له خطواته الإجرائية.

ما يُحسب لهذه البدائل المنهجية إعادتها الحيوية لسؤال المنهج في المعرفة السوسولوجية المعاصرة، تمثيًا مع التحولات التي عرفتها فلسفة العلوم المعاصرة، والانتقادات التي طالت المنهج في العلوم الطبيعية، وخاصة مع فكرة فوضوية المنهج التي طرحها فيرماند، والمنهج المركب الذي طوره إدغار موران، لذلك نستهل هذا السجال حول البدائل من المنهج النقدي، الذي مثلته التيارات النسوية والماركسية المحدث، ومدرسة فرانكفورت، حيث كان ثمة رفض للافتراضات الوضعية،

النتائج التي يخلص إليها الباحثون، فتتهم البحوث الكيفية بأنها بحوث أيديولوجية تنطلق من رؤى ثقافية ومعرفية مسبقة، وليست لها علاقة بالعلم أو المنهج العلمي، لذا لا يُعتد بنتائجها وخلصاتها.

كذلك، طرحت بالنسبة للبحوث الكيفية التي تتبنى البراديغم التأويلي، مشكلة التعميم العلمي، حيث عادة ما يختار الباحثون عينات صغيرة الحجم، وبمواصفات منهجية تكون في الغالب الأعم ذاتية، «فإن البيانات الكيفية، والتي منها ما نراه في تقارير المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، كثيرًا ما يُشار إليها بأنها بيانات مزعومة أو مؤلفة مما يعني أنها أقل علمية، ومن ثم فهي أقل دقة وبالتالي أقل أهمية»⁽¹⁾.

خامسًا:

سؤال المنهج في المعرفة السوسولوجية المعاصرة: نحو صياغات منهجية بديلة:

بناء على الانتقادات التي تعرض لها كل من البراديغم الوضعي والتأويلي في المعرفة السوسولوجية، طرحت محاولات منهجية بديلة، ولنكن واضحين من البداية، أن هذه الاجتهادات على قيمتها العلمية المنهجية إلا أنها لم ترق إلى مرتبة براديغم منهجي بديل، وإنما بقيت محاولات متناثرة ومشتتة، أنتجها

(1) شارلين هس-بيير باتريشيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة: هناء الجوهري، ط1 (مصر: المركز القومي للترجمة، 2011)، ص56.

التأويلي، فانتقد ادورنو البحث الكيفي، قائلاً: «أي لو جرى الاعتماد على الطريقة الكيفية، فإن ذلك سيؤمن دون شك ويمكن في كل الأحوال التعرف على أكثر الأمور فعالية، ولكن الباحث سيجد نفسه هنا وليس له ما يحميه، إزاء حائط مسدود، إذًا هل يمكن الخروج من وجهات النظر المتعددة المميزة وحتى العينية بتعميم ما»^(٤).

نرى أن المنهج النقدي لا يشكل براديفمًا منهجيًا مخصصًا، وإنما بقي يتغاضى عن أخطاء وتناقضات القواعد المؤسسة للبراديفم الوضعي-التأويلي، ولم يُطور أدوات وتقنيات على مستوى الممارسات البحثية، وبالتالي، لا يُمكننا الحديث عن براديفم نقدي، رغم ادعاء بعض باحثيه المتحمسين. المنهج النقدي لم يضيف إلى تكوين معارف جديدة في العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، وإنما بقي في لحظة النقد ولم يتجاوزها، يُعلق كارل بوبر على أعمال ادورنو قائلاً: «فإني لا أستطيع الاتفاق ولا الاختلاف مع القطاع الأكبر من فلسفته. وعلى الرغم من بذل الجهد لفهم فلسفته، لتبدو لي بأسرها، أو في معظمها، مجرد حشد للألفاظ، لا شيء لديه البتة ليقوله، وهذا اللاشيء يقوله بلغة هيجلية»^(٥).

في السياق نفسه، طرح بديل منهجي

«خاصة الفكرة التي تزعم وجود مراقب متحرر من أحكام القيمة، ويعيد عن التحيز ومعها تلك الزيادة الملحوظة المتساوقة في ما يمكن أن ندعوه بالنقد الملتزم أخلاقياً، ذلك النقد الذي سبق له أن انحرف في بعض الأحيان صوب الأخلاقوية المحضة»^(١)، ويقوم المنهج النقدي على رؤية جدلية لمفهوم المجتمع، «فالمجتمع لا يمكن مع ذلك أن يكون مفهومًا يتعدى الأفراد، فلا هو بالفعل مجرد جمع أو حصيلة الأفراد الذين يكونون المجتمع، ولا هو شيء قائم مستقل إزاء الأفراد، بل شيء يتوسط هاتين اللحظتين، فهو لا يتحقق من خلال الأفراد ومع ذلك، فلا هو حصيلتهم»^(٢)، ومنطوق هذا القول، أن هناك علاقة جدلية بين الفرد والمجتمع، يتحدد في ضوئها منهج الدراسة في المعرفة السوسولوجية.

بذل الباحثون في مدرسة فرانكفورت جهدًا من أجل عدم الفصل أليًا بين منهج علم الاجتماع وموضوع هذا العلم، «بل إنها تحاول جاهدة، وإن تفاوتت درجات نجاحها في ذلك، أن تناسب مسبقًا بين المنهج وبين المواضيع التي ستكون مدار البحث»^(٣)، إلا أن رفض الفصل بين المنهج والموضوع في السوسولوجيا، لا يعني تماهي المنهج النقدي مع المنهج

(١) ألان هاو، النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت، ترجمة: ثاير ديب، طا (مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠)، ص ٢٣.

(٢) تيدور فون أدورنو، محاضرات في علم الاجتماع، ترجمة: جورج كتورة، (بيروت: مركز الانماء القومي، د.س)، ص ٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٥) كارل بوبر، أسطورة الاطار، في الدفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة: بمنى طريف الخولي، العدد: ٢٩٢، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، ٢٠٠١)، ص ١٠٦.

كلي الظاهرة الاجتماعية^(٢)، كذلك، نعثر على محاولات منهجية أكثر إجرائية، ولم تغرق كثيرًا في التفصيلات النظرية، كمحاولة النظرية التكيفية الجمع بين الأساليب الاستقرائية والاستدلالية في دراسة الظواهر الاجتماعية^(٣):

- تركز النظرية التكيفية على موقف معرفي لا هو وضعي ولا هو تأويلي.

- إنها تفيد كل من النزعتين الموضوعية والذاتية فيما يتعلق بافتراضاتها الأنطولوجية.

- تفترض النظرية التكيفية أن العالم الاجتماعي عالم معقد، ومتعدد الأوجه، ومتلاحم بصورة مكثفة.

وجهت انتقادات حادة لفكرة التكامل بين الكمي والكيفي في المعرفة السوسولوجية، على اعتبار أن لكل بحث أدواته ومناهجه وتقنياته، فلا يمكننا من الناحية الإبستمولوجية التوفيق بين العديد من الافتراضات المنهجية المتناقضة، لذلك فكرة التكامل بين الكيفي والكمي لا تؤدي إلى فهم عميق للظواهر الاجتماعية، فكيف يُمكننا التوفيق بين الميكر والماكرو في دراسة الظواهر الاجتماعية؟ وبتعبير أدق، كيف يمكننا الانتقال من دراسة وحدات صغرى إلى دراسة

آخر في المعرفة السوسولوجية، يتمثل قوامه في التكامل بين البحث الكمي والكيفي في دراسة الظاهرة الاجتماعية، طبعًا، هذا الخيار يعكس إلى حد ما؛ فكرة التوفيق أيضًا بين المنهجية الفردانية والمنهجية الكليانية، بمعنى مبسط، أننا لا ندرس الظواهر الاجتماعية بالرجوع للفاعل الاجتماعي مع إقصاء المجتمع، والعكس، لا ندرس الظواهر الاجتماعية انطلاقًا من البيئة الاجتماعية ونقصي الفاعل الاجتماعي، نجد أبرز من مثل هذه الخيار عالم الاجتماع أنتوني جدينز، حيث حاول الجمع بين ثنائية الفرد والمجتمع في تحليل الظواهر الاجتماعية وتفسيرها، مُعتبرًا أن مجال الفعل الإنساني محدود بحدود معينة، فالبشر يخلقون المجتمع، ولكنهم يفعلون ذلك باعتبارهم فاعلين مشروطين تاريخيًا ولا يفعلونه في ظل ظروف من اختيارهم، ومع ذلك فهناك هامش غير ثابت من السلوك الذي يمكن أن يحلل كفعل قصدي، والسلوك الذي ينبغي أن ناموسيًا ومنطقيًا كمجموعة من الأحداث^(١)، هنا، يأخذ المنهج في المعرفة السوسولوجية طبيعة مزدوجة، أو كما وسمه غيدنز بمنهج التأويل المزدوج، عرّف في المستوى الأول المنهج، سواء الكمي أو الكيفي، على أنه مجموعة من الإجراءات تساعدنا في فهم الممارسات في وضعيات معينة، وتشرح على مستوى

(2) Jean -Yves Couser, Crioisement des methodes et approfondissement d un regard, la scientificite de empirisme en sociologie, sous la direction de abdehalim Berretima, L Harmattan, 2019, p172.

(٣) ديرك لايك ، قضايا التنظير في البحث الاجتماعي، ترجمة: عدلي السمري، طا (مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠)، ص٣٤٠.

(١) أنتوني جدينز، قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمد محيي الدين، (مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠)، ص٢٧٩.

مصادرة كلمتهم باسم موضوعية علمية مزعومة تبحث دائماً أن تكون قريبة من اهتماماتهم وتجاربهم الآنية»^(٢).

بناء على هذا، لا أسبقية للفاعل الاجتماعي كخيار في السوسولوجيا البراغماتية، وكذلك نفس الشيء بالنسبة للبنية الاجتماعية، وإنما هناك مستويين متداخلين عند النظر إلى الظاهرة الاجتماعية، يقودنا المستوى الأول: الميكرو إلى المستوى الثاني: الماكرو، لنصل إلى فهم عميق لخيارات ومقاصد الفاعلين الاجتماعيين، «لا يعتبر الميكرو Micro يقع في تضاد مع الماكرو Macro، وإنما يدخل ضمن مخطاطته، إنه وضعية ضمن وضعيات، فمستوى الماكرو يكمل مستوى الميكرو تحقيقاً وموضوعية من خلال الممارسات، فيقرون بوجود البيانات الاجتماعية والمؤسسات، لكننا لا يمكننا وصفها عبر الفاعلين الاجتماعيين»^(٣).

وهذا، عكس البديل المنهجي الذي يدعو أصحابه إلى التكامل بين البحث الكيفي والبحث الكمي، فهنا قضية تداخل على مستوى التحليل السوسولوجي بين الكلي والجزئي للظواهر الاجتماعية، فسوسولوجيا الاختيارات كما يحلو للبعض أن يدعوها، أرادت أن تنأى بنفسها

وحدات كبرى؟ وبالتالي، لم يرتق هذه البدائل إلى بردايغم منهجي متنسق المنطلقات المعرفية وواضح القواعد المنهجية.

وليس بعيداً عن هذا المنحى، تشكل تيار سوسولوجي في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات تحت مسمى السوسولوجيا البراغماتية في فرنسا، أتى هذا التيار كرد فعل معرفي على سوسولوجيا الهمينة عند بيار بورديو، وسوسولوجيا الفردانية المنهجية عند ريمون بدون، حاولت السوسولوجيا البراغماتية أن تتجاوز من الناحية المنهجية تلك ثنائيات الشهيرة في المعرفة السوسولوجية: الفردي والكلياني، الذاتي والموضوعي، الوضعي والتأويلي، لتؤسس لتصورات منهجية بديلة، حيث ينصب تركيز الباحث على المشكلة والسؤال المتعلق بالبحث السوسولوجي، بغض النظر عن أي اعتبارات نظرية أو منهجية مسبقة، ولذلك قد يلجأ الباحث إلى مقاربات متنوعة سواء كانت ما بعد وضعية، أو بنائية، أو تحويلية، في البحث ذاته»^(١)، فقام علماء الاجتماع البراغمطيون بصياغة طرق جديدة لإجراء المسوح الاجتماعية وجمع المعطيات الميدانية واستكشاف الميدان، «فالأفق البرغماتي للسوسولوجيا ومتطلبها الأول هو الأخذ على محمل الجد أفعال ومسوغات الأشخاص العاديين وفي خلال ذلك تفادي

(٢) محمد ناشي، مدخل إلى علم الاجتماع البراغماتي، ترجمة: طواهري ميلود، طا(بيروت: دار الروافد الثقافية- ناشرون، ٢٠١٤)، ص ٢٢٨.

(3) Yannick Bartheet autre, SOCIOLOGIE PRAGMATIQUE : MODE D'EMPLOI, Politix, 2013/3 N° 103, p 178.

(١) باسم محمود، نحو علوم اجتماعية في السياق العربي: في الحاجة إلى النظرية المتجددة، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، العدد ٢٦ (خريف ٢٠١٨)، ص ٩٢.

على هذا، دعت الدراسات السوسولوجية في مرحلة ما بعد الكولونيالية إلى تأسيس براديغم منهجي بديل لدراسة الظواهر الاجتماعية يُراعي السياقات الاجتماعية والتاريخية لهذه المجتمعات، «فلقد جعلتنا إيجابيتنا تجاه النظريات السوسولوجية الغربية نتقن التعليم في هذا المجال، إلا أنها لم تعطنا الأدوات اللازمة لمعالجة قضايا واقعنا الذي يختلف في تكوينه ويزيد تعقيداً على واقع المجتمعات الغربية»⁽¹⁾.

وفق هذه الرؤية النقدية، طرحت فكرة التبعية في مجال المعرفة السوسولوجية، حيث تُنتج المجتمعات الغربية البارديغمات المعرفية، بينما تبقى المجتمعات الثالثة في حالة تبعية معرفية تامة، وهي تبعية لها جذور بالمرحلة الكولونيالية وكذلك تتعلق بالمؤسسات الدولية في العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، وعليه، تصبح هذه النماذج المعرفية مسائلة عامة⁽²⁾، ومن هذا المنطلق، حاول بعض الباحثين صياغة بدائل منهجية، تتجاوز التحيزات الثقافية والحضارية للبراديغم الوضعي والتأويلي؛ لأن النظريات الاجتماعية

عن الجدل الشهير بين الفاعل الاجتماعي والبيئة الاجتماعية، إلا أننا نعتقد أنها في الأخير انحازت إلى خيار الفاعل الاجتماعي، ولا تعدو أن تكون محاولتها إلا تطويراً منهجياً للفرادنية المنهجية، بدمجها للمستوى الكلي في الجزئي عند مقارنة الظواهر الاجتماعية، وعليه، اتهم هذا التيار بتميع موضوع علم الاجتماع، بتداخله مع موضوع علم الاقتصاد، وبالتالي، لم تتمكن الافتراضات المنهجية التي قدمتها السوسولوجيا البراغماتية من صياغة براديغم منهجي، وبقيت محدودة التوسع والانتشار بين الباحثين والأكاديمين، بل هناك من اتهم هذا التيار بأنه عمل على هدم حدود السوسولوجيا.

في الأخير، ومن زاوية بعيدة عن الجغرافيا التي نبتت فيها السوسولوجيا، طعن الباحثون الذين ينتمون إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية في العالم الثالث في البراديغم الوضعي/التأويلي في المعرفة السوسولوجية من منظور السياق التاريخي والاجتماعي، منطلقين من فكرة نسبية هذا البراديغم، بحيث استُخدم في دراسة الظواهر الاجتماعية التي خبرتها المجتمعات الغربية، إذا قمنا بإخراجه من هذا السياق، تظهر لنا محدوديته، فحتى المؤسسات الأكاديمية الغربية في مرحلة زمنية ما ابتكرت الأنثروبولوجيا بمناهجها لدراسة المجتمعات غير الغربية، بناءً

(1) علي الكنز، المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع، في كتاب: نحو علم الاجتماع العربي، محمد عزت حجازي وآخرون، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، ١٩٨٩، ص١٠٠.

(2) Wiebke Keim, POUR UN MODÈLE CENTRE-PÉRIPHÉRIE DANS LES SCIENCES SOCIALES, Aspects problématiques des relations internationales en sciences sociale, Revue d'anthropologie des connaissances, 2010/3 Vol 4, n° 3.

على التحيزات الثقافية والحضارية، ومحاولة تأسيس براديجم متحيز ثقافيًا وحضاريًا، مما أوقعها في نفس الأخطاء المعرفية التي انتقدتها، حيث ما تزال هذه المحاولات الطريفة، تجذب إليها الباحثون المبتدئون والشباب المتحمس، بينما ينفر منها الباحثون المتمرسون؛ لأنهم يعتقدون أن البراديجم الوضعي والتأويلي، لا يكمن الخطأ في أسسه المنهجية وافتراضاته الإبيستيمولوجية، وإنما في إشكالية الإلتقان المنهجي لأدواته وتقنياته، وصعوبات أخرى تتعلق بالجوانب الذاتية للمبوحوثين في مجتمعات العالم الثالث، الذين لا يتعاونون مع الباحثين، مما يؤثر سلبًا على نتائج الدراسات الميدانية، وبالتالي، لم تتمكن هذه المحاولة على جديتها من طرح براديجم بديل.

خاتمة

خضعت المعرفة السوسيوولوجية منذ نشأتها إلى براديجمات معرفية، وهي عبارة عن مجموعة من الافتراضات الإبيستيمية والنظريات والقواعد المنهجية التي يتبعها الباحثون في دراسة الظواهر الاجتماعية، يتحدد في ضوءها المنهج الذي يمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية، ومدار النقاش إلى يومنا هذا يدور حول الثنائيات الشهيرة: الوضعي والتأويلي، الموضوعي والذاتي، الميكرو والماكرو، الفاعل والبنية، حيث تعبر هذه الثنائيات التي تخترق المعرفة

المتولدة عنه هذا لا تجيب عن إشكالات واقع مجتمعات العالم الثالث، «فيحاول الكثيرون إقحامها في تفكيرهم مهما كان الثمن باهظًا أو أصبحت مجالًا واسعًا لاغتراب بحوثنا ومرتغًا للمتاهات اللفظية وخروجًا واضحًا خطيرًا عن المسأليات والاشكاليات العربية الأصيلة»^(١)، وعلى هذا الأساس، طرح بعض الباحثين في العالم العربي بدائل منهجية، لعل أمتها معرفيًا محاولة عبدالله حمودي تأسيس أنثروبولوجيا عربية، «هم مشروعنا هذا هو إنتاج البديل المعرفي من طرف الباحثين المنتمين إلى المنطقة المغربية والعربية، وعلى أساس تطلعات شعوبها، والأسئلة العريضة التي يطرحها الناس يوميًا على أنفسهم ومجتمعاتهم، وبطبيعة الحال، فإن نقد الخطابات الغربية من حيث هي خطابات همينة وتحيز له دور حيوي»^(٢).

على وجهة هذا النقد الذي وجه للبراديجم الوضعي والتأويلي في المعرفة السوسيوولوجية، والكشف عن نسبة الافتراضات الإبيستيمولوجية التي ينطلق منها، واستحالة تطبيق قواعده المنهجية على الظواهر الاجتماعية في مجتمعات العالم الثالث، إلا أن هذه المحاولة شابها القصور المنهجي والمعرفي، بسبب التركيز

(١) عبد الوهاب بوحدية، لأفهم فصول عن المجتمع والدين، ط (١) تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٩٢، ص ٨.

(٢) عبد الله حمودي، المسافة والتحليل، في صياغة أنثروبولوجيا عربية، ط (١) المغرب: دار توبقال للنشر، ٢٠١٩، ص ٨.

للباحثين، لذلك نعتقد أن سؤال المنهج سيبقى سؤالاً حاضراً يطرح على كل باحث يشتغل في حقل السوسيوولوجيا.

الباحثون في العالم العربي مطالبون بطرح سؤال المنهج في المعرفة السوسيوولوجية، وتكييفه بحسب السياق الاجتماعي والتاريخي للمجتمعات العربية، فالبراديغم المنهجي الوضعي الذي كانت له الحظوة، نظراً لسهولة استيعاب قواعده المنهجية الكمية، في المقابل، استُبعد البراديغم التأويلي، نظراً لصعوبة قواعده المنهجية وتداخلها مع الفلسفة، والقائم على تأويل الفعل الاجتماعي، وفهم دوافع ومقاصد الفاعلين الاجتماعيين، لذا، يحتاج الباحث العربي أن يفتح على كل المناهج التي طورتها السوسيوولوجيا المعاصرة، وأن يبتعد عن النقد الأيديولوجي للمنهج في علم الاجتماع، كما يحاول البعض تأسيس مركزية عربية، نرى أنها لا تسهم في ترسيخ وتوطين المعرفة السوسيوولوجية، وإنما تزيد من مأساتها على مستوى الخطاب الأكاديمي الجامعي.

وعى الباحثين بالبراديغمات المنهجية التي تشكلت في المعرفة السوسيوولوجية، يجب أن لا يحجب عنهم تلك العلاقة الجدلية بين المنهج والنظرية في السوسيوولوجيا، فنحن عندما نتحدثنا عن البراديغم الوضعي أو التأويلي، يجب أن يكون لدينا وعى بمنطلقاته، وامتداداته، بحث يتجلى كل براديغم في نظريات عديدة،

السوسيوولوجية عن تعدد زوايا النظر العقلي إلى العوالم الاجتماعية، لذا علينا كباحثين في العالم العربي أن ننخرط في هذا النقاش للإثراء والإغناء، دون أن نصد عنها بحجة هذا التعدد المنهجي، فحتى العلوم الطبيعية التي تعتبر أكثر رسوخاً من الناحية المنهجية، لا تزال تعرف نقاشات حادة حول وضعياتها الإبستمولوجية، أما من أراد أن ينخرط في نقد هذه المناهج، فإنه سيمر عبر تأزيم أسسها وقواعدها ومنطلقاتها بالممارسات الإمبريقية، فالتجريب والممارسة الميدانية، هي التي تحكم عن ما تبقى صالحاً من هذه المنهج في تحليل الظواهر الاجتماعية في المجتمعات الحديثة، كما تسهم هذه الممارسات البحثية في بلورة بدائل منهجية تثري المعرفة السوسيوولوجية.

سؤال المنهج في المعرفة السوسيوولوجية، سؤال يحمل على الدوام إجابات متعددة بحسب السياقات التاريخية والاجتماعية التي يطرح فيها، سؤال تتحكم في استقهاميته البنية الابستمولوجية للمعرفة السوسيوولوجية، كالسؤال عن أفضل الأدوات والتقنيات التي يمكن أن يعتمد عليها الباحثون في دراسة الظواهر الاجتماعية، وقد يكون سؤال المنهج من خارج حدود المعرفة السوسيوولوجية، كالأئلة الفلسفية النقدية حول موضوعية المعرفة السوسيوولوجية، والعلاقة بين السوسيوولوجيا والتحيزات الأيديولوجية والثقافية

-بوبر، كارل، عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة: عبد الحميد صبرة، (مصر: دار المعارف، ١٩٥٩).

-بوحديبة، عبد الوهاب، لأفهم فصول عن المجتمع والدين، طا (تونس: الدار التنوسية للنشر، ١٩٩٢).

جيدنز، انتوني، قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمد محي الدين، (مصر : المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠).

جيدنز، انتوني، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة: أحمد زايد وآخرون، ط٢(القاهرة، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٦).

حمودي، عبد الله، المسافة والتحليل، في صياغة انثروبولوجيا عربية، طا (المغرب: ادار توبقال للنشر، ٢٠١٩)

دورتيه، ج.ف. معجم العلوم الإنسانية ترجمة: جورج كتورة، ط٢(بيروت- لبنان: كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠١١).

دوركاييم، اميل، قواعد المنهج الوسوسيوولوجي ترجمة: محمد سبعيني، (الجزائر: دار القصة للنشر، ٢٠٠٨).

ديلتاي، فلهلم، إقامة العالم التاريخي في علوم الوجود، ترجمة: فتحة انقزو، طا (تونس:

تشارك في مجموعة من القواعد والافتراضات المنهجية، وفي كيفية تفسير الظواهر الاجتماعية، وهنا، هذا الاحتراز ضروري حتى لا نقع فريسة للنزعة الميثدولوجية، التي تعلي من قيمة المنهج على حساب النظرية، حيث نلاحظ نزعة إمبيريقية كمية أصبحت سائدة في الممارسات البحثية على مستوى الجامعات العربية، تحولت معها المعرفة السوسيوولوجية إلى مجرد معادلات رياضية إحصائية باهتة، مفرغة من كل تحليل سوسيوولوجي.

البيلوغرافيا:

-أنصار، بيار، العلوم الاجتماعية المعاصر، ترجمة: نخلة فريفر، طا (المغرب: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢).

-أهاو، آلان، النظرية النقدية، مردسة فرانكفورت، ترجمة: ثائر ديب، طا(مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠).

-باسينو، جيفاني، نقد المعرفة في علم الاجتماع، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، طا (لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨).

-بوبر، كارل، أسطورة الإطار، في الدفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة: يمنى طريف الخولي، العدد: ٢٩٢، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، ٢٠٠١).

الانسانية، ترجمة: حسين قبيسي، طا(لبنان): دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (٢٠٠٨).
مهان. جاك. الخطابات علم الاجتماع، ترجمة: عياشي عنصر، (الأردن: دار المسيرة، طا، ٢٠١٠).

ناشي. محمد، مدخل إلى علم الاجتماع البراغماتي، ترجمة: طواهري ميلود، طا(بيروت): دار الروافد الثقافية ناشرون، (٢٠١٤).

هس-بيبر، شارلين، باتريشيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة: هناك الجوهري، طا(مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١).

قائمة المجلات:

احسن احجيج، التفسير القصدي للسلوك الاجتماعي وشروط صدقيته، **مجلة عمران للعلوم الاجتماعية**، العدد ٢٩ (صيف ٢٠١٩).

باسم محمود، نحو علوم اجتماعية في السياق العربي: في الحاجة الى النظرية المتجذرة، **مجلة عمران للعلوم الاجتماعية**، العدد ٢٦ (خريف ٢٠١٨).

References:

Gilles Willett, Paradigme, théorie, modèle, schéma: qu'est-ce donc ?, *Communication et organisation* [En

المركز الوطني للترجمة، ٢٠١٥).

فيبر، ماكس، مفاهيم اساسية في علم الاجتماع، ترجمة: صلاح هوال، طا (مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١).

كابان، فليب، جان فرنسوا دروتيه، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ترجمة: اياس حسن، طا (سوريا: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠).

كريب. أيان، النظرية في علم الاجتماع، من بارسونز الى هابرماس، ترجمة: محمد حسين غلوم، العدد: ٢٤٤، (الكويت: المجلس الأعلى للفنون والثقافة والاداب، ١٩٩٩).

الكنز علي، المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع، في كتاب: نحو علم الاجتماع العربي، محمد عزت حجازي وآخرون، طا(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، طا، ١٩٨٩).

كون. توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، العدد: ١٦٨، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢).

لايك. ديرك، قضايا التنظير في البحث الاجتماعي، ترجمة: عدلي السمري، طا(مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠).

ليفي شتراوس. كلود، مقالات في

Juliette Grange, Lire Auguste Comte aujourd'hui, Entre Science et société , *Bulletin de la Sabix*, 20-11 ,2002 | 30.

Lahouari Addi, sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu Le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, France ; La Découverte, 2002.

Julien Farges, LE RÔLE DU CONCEPT D'ÂME DANS LA FONDATION DES SCIENCES DE L'ESPRIT Entre phénoménologie, néokantisme et philosophie de la vie, *Archives de Philosophie* ,4/2014 Tome 77,

Jean-François Dortier, La sociologie; Editions Sciences Humaines, 2009, p34.

Frédéric Gonthier, RELATIVISME ET VÉRITÉ SCIENTIFIQUES CHEZ MAX WEBER, *L'Année sociologique* , 1/2006 Vol. 56.

Alex Mucchielli, Le développement des méthodes qualitatives et l'approche constructiviste des phénomènes humains , *RECHERCHES QUALITATIVES– Hors-Série – Numéro 1*, p11

Actes du colloque RECHERCHE QUALITATIVE ET PRODUCTION DE SAVOIRS, UQAM, 12 mai 2004.

ligne], 1996 | 10, mis en ligne le 26 mars 2012, consulté le 28 février 2020. URL

fetcu, Nicolae, Imre Lakatos, La méthodologie des programmes de recherche scientifique , *SetThings* (25 mars 2019), MultiMedia Publishing.

URL = <https://www.setthings.com/fr/imre-lakatos-la-methodologie-des-programmes-de-recherchescientifique>.

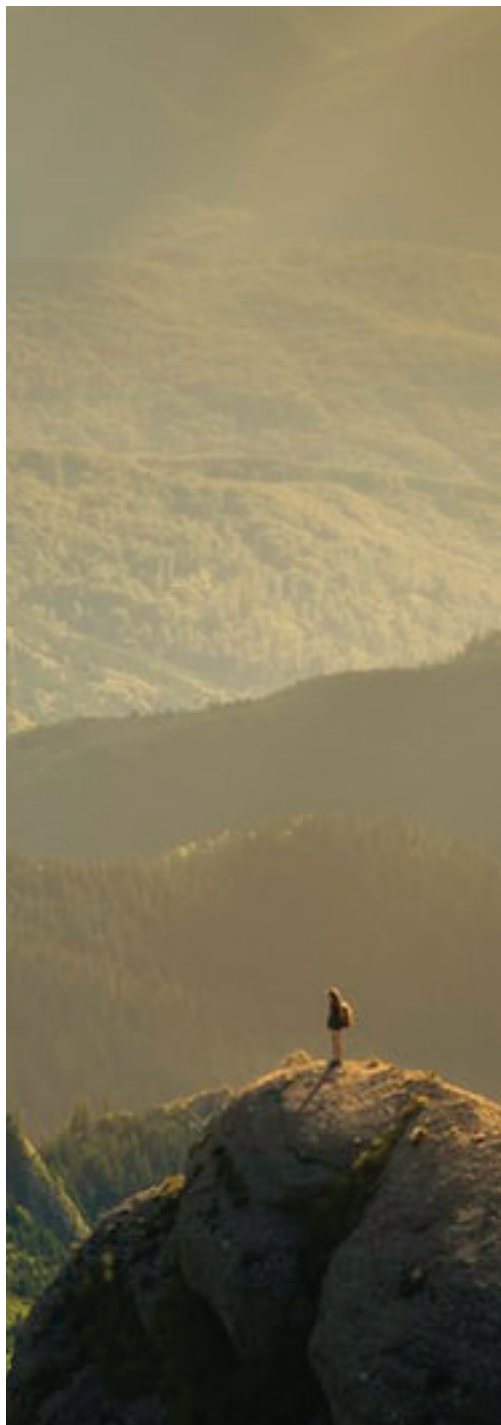
Alain Touren, LES ÉCOLES SOCIOLOGIQUES, *Cahiers de recherche sociologique*, no 14, printemps 1990.

Yao Assogba, La sociologie de Raymond Boudon. Essai de synthèse et applications de l'individualisme méthodologique, Québec : Les Presses de l'Université Laval- l'Harmattan, 1999.

Boudon Raymond , *Traité de sociologie*, Paris, Presses Universitaires de France, 1992.

Moustfa Boutafnouchet, introduction a la sociologie, les fendement, O-N-U , alger, 1990.

Comte, *Cours de philosophie positive I. Leçons 1 à 45*, éd. M. Serres, F. Dagognet, A. Sinaceur, Paris : Hermann, 1998.



Naishtat Francisco s. Max Weber et l'individualisme méthodologique. In: Raison présente, n4 ,116°e trimestre 1995.

Raymond Boudon, THÉORIE DU CHOIX RATIONNEL OU INDIVIDUALISME MÉTHODOLOGIQUE ? Revue du MAUSS », 2/2004, no24.

Guy HUARD, Alfred SCHÜTZ :LE CHERCHEUR ET LE QUOTIDIEN, Publié dans Aspects sociologiques, Vol. 5, no 1, novembre 1996

Jean -Yves Couser, Crioement des methodes et approfondissement d un regard, la scientificite de empirisme en sociologie, sous la derection de abdehalim Berretima, L Harmattan ,2019.

Yannick Barthe et autre,SOCIOLOGIE PRAGMATIQUE : MODE D'EMPLOI, Politix ,3/2013 N° 103,p 178.

Wiebke Keim, POUR UN MODÈLE CENTRE-PÉRIPHÉRIE DANS LES SCIENCES SOCIALES, Aspects problématiques des relations internationales en sciences sociale, Revue d'anthropologie des connaissances, 3/2010 Vol 4, n° 3.